المصطلح القرآني وعلاقته بعلوم الاستراتيجيا

د. محمد بريش(*)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أبدأ كلمتي بتعريفات، وأُتبعها بالإشارة إلى إشكالات، ولا أرى الوقت يسمح إلا بإشارة للعلاقة بين المصطلحات. ما سأقوله هو عصارة تجربة وخبرة في الشأن الاستراتيجي والحقل المستقبلي على مدى ثلاثة عقود ونيف، والتنظير الإسلامي في ذلك لا يزال ضعيفاً، لن تجدوا ما أقوله مسطرا في كتاب، ولا أزعم أني أوتيته على العلم، فقد استفدت من كثيرين، ولكني أتحمل مسؤولية كلامي وحدي.

ونظرا لضيق الوقت أعتذر أني قد لا أعزز ما قعدته بشرح، فذلك يحتاج إلى ورشة أو دورة تدريبية، وأنا على أتم استعداد لذلك.

وأعرّف ابتداء بالاستراتيجيا، وهي لفظ أعجمي لاتيني، مكون من عنصرين: من فعل (Agen) وفعل (Stratos) ليستخلص منه (Strategos)، (Agen) يعني أدار ونظم، و(Stratos) التي هي الجيش، فتكون (Strategos) هي إدارة الجيش أو تنظيم الجيش، ومن وجهة نظري، ومن خلاصة تجربتي، ومن منطلق إيماني كذلك، أرى أن الاستراتيجيا من حيث الغائية ضربان:

الأول: نهج استجماع قوة؛ والثاني: خطة تفعيل استطاعة.

(*) خبير في الدراسات المستقبلية والاستراتيجية - قطر

ومن ثَمَّ، فهي في تلك الغائية فهم وإدراك لواقع حال، وعزم على التأهب لكسب مآل.

والقوة في منظور ما أعنيه امتلاك إرادة أولاً، وتوفر رغبة ابتداءً في اكتساب مرتبة متقدمة في سلم التدافع، وكسب غلبة فيه.

والاستطاعة أربعة أركان:

الأول: أن تستطيع الفعل؛

الثاني: أن تستطيع الامتناع عن الفعل؛

الثالث: أن تلزم غيرك بالفعل؛

الرابع: أن تمنع غيرك من الفعل.

واستجماع القوة حزم وعزم، وتفعيل الاستطاعة قدرة وإرادة.

فإذن، الاستراتيجيا هي المنهج في نقل الإرادة الى مستوى ثقة في القدرة، أقول ثقة في القدرة، تسمح باستجماع الحزم، وإحكام العزم، وهذا شيء يتقنه القرآن، ولا يتقنه في الإنسان غير القرآن، ومن ثَمّ فإن الاستراتيجيا القوية لا تحتاج الى القدرة الواسعة بقدر ما تحتاج الى الإرادة الراسخة.

ومن منظور إسلامي فالاستراتيجيا في بساطتها هي الرابط الناظم بين الإيمان السليم والعمل الصالح، هذا من حيث الغائية، أما من حيث الفن، فالاستراتيجيا فنون ثلاثة، مترابطة ارتباطا دائريا متتاليا مرتبا: التعبئة، فالمواجهة، فالمراجعة، ثم العودة للتعبئة بعد المراجعة أو في ضوء المراجعة وهكذا دواليك. هذه الثلاثية تحتاج للإنجاز إلى ثلاثية أخرى حددتها ورقة هذا الملتقى: الرؤية الجامعة، والمنهاج الجامع، والشخصية الجامعة. وقد قلت في ندوة سابقة: إن الأمة إن كان مصدرها الجامع ومنطلقها الجامع كانت لها الكلمة الجامعة، وإن لم يكن لها ذلك، فلن يكون لها أي جمع إطلاقا، كما أن هذه الفنون الثلاثة التي تعبر في ترابطها وتواليها عن الاستراتيجيا ليست مجردة

عن الواقع، فهي ملزمة بالتجلي في الزمان والمكان، ومرتبطة بفعل الإنسان، وتفاعل الإنسان، وحركة الإنسان، فلدينا إذن ثلاثية أخرى متماسكة: الإنسان، والزمان، والمكان.

والقرآن الكريم ضبط ترتيبا آخر في سورة الأنفال للمراحل الاستراتيجية، فبدأ بالأخيرة لينتهي بالأولى، **فتكلم عن مرحلة الإمداد**، التي هي منه، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالنصر محصور منه سبحانه وتعالى، ومن عطائه وأمره، **وكذلك الإمداد**، ثم ثنّى **بمرحلة الاستعداد** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال: 45-47)، **ثم ذكر مرحلة الإعداد** ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: 60)،وقلت لن أقف على ما قعدته لشرحه فالوقت لا يسعف.

والمصطلح الدال على مفهوم الاستراتيجيا في القرآن قاله الله لفظا، وحدده فهما، وعلمه عز وجل نهجا، فإذا حسنت العلاقة بين المصطلح القرآني والعلوم – كافة العلوم - يستحيل أن يكون في الأمة تخلف، وإذا ضعفت أو انعدمت ففي ادعاء قوة بها أو تقدم لها تزلف، وفي زعمنا نماءها تكلف.

ويثير حصر المصطلح الاستراتيجي في القرآن الكريم إشكالات، أهمها:

الإشكال الأوّل في حده، صعوبة حد هذا المصطلح، فقد لا تكون الدلالة العامة ذات مغزى استراتيجي، لكن السياق يجعل الألفاظ الواردة في النص استراتيجية، أضرب على ذلك مثالا في سورة النحل يقول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: 74-76)، هنا التساوي تساوي تناقض، مثل قوله تعالى حينما يذكر الظل والحرور، وحينما يذكر الظلمات والنور، فالاستواء هنا ليس استواء تفاضل، مثل قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: 10)، أو قوله تعالى ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 95)، هذه تساوي تفاضل؛ لأن كلا وعد الله الحسنى في كِلا الآيتين وفي كِلا المثلين، لكن هنا التساوي يعني أن هذه تناقض هذه، وحتمية وجود هذه تقتضي انعدام الأخرى، فإذن، ماذا نستخلص من حيث الدرس الاستراتيجي؟

في المثل الأول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ العبد المملوك القوة منه هي قهرا لغيره أو ممنوعة منه بقرار سيده، أو خضوعه لقوة مقيدة تشل حركته، فإذن، عندنا انعدام كلي للقوى، أو استحالة صرفها، ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ غياب الاستطاعة بأركانها الأربعة، ﴿ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾

امتلاك قوة مادية مع الحسن في صرفها، الإنفاق سرا وجهرا تحصيل قدرة وحرية وسيادة في الإنفاق بمختلف الأوجه من العبودية.

فنستنتج الخلاصة الاستراتيجية البليغة أن الرزق الحلال والإنفاق منه يكسب القوة والحرية، ويثري الإرادة، ويمنع من العبودية، ويكسر القيود والأغلال المانعة، فأضحى المصطلح المركب: الرزق الحسن ومصطلح الإنفاق، مصطلحان استراتيجيان رئيسيان بحكم التقابل في المثل مع المضاد لهما وويلاته وخطر نتائجه.

في المثل الثاني: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، (الأبكم) منعدم الاتصال والتواصل، (لا يقدر على شيء) غياب القدرة والإرادة، (وهو كَلٌّ على مولاه) عبء ثقيل على الغير (أينما يوجهه لا يأتي بخير) لا يحتاج سيده لمنع قواه فهو لا يرجى منه إطلاقا ذلك، ويستحيل منه، (يأمر بالعدل) العدل هنا ضابط لاستعمال القوة وضمان بقائها، (وهو على صراط مستقيم) البنية التي يسود فيها العدل وينتشر، هي التي يكون المنهج فيها هو الصراط المستقيم. نستنتج أن وجود العدل ونهج الصراط المستقيم مانع للبكم بمختلف ألوانه، بما فيها البكم الحضاري والعلمي، وموفر للقدرة والإرادة والاستطاعة، ودافع لها، ومانع من أن يكون الشخص أو المجتمع أو الأمة عبئا على الغير، ومبعد لكل ما يجر العطل ويمنع جلب الخير، فالألفاظ المذكورة هنا أضحت لها حمولة استراتيجية بحكم التقابل وتفعيل مفهوم المخالفة ما قد لا تحتمله حين ورودها في نص آخر.

الإشكال الثاني: في حدوده، المصطلح يكون قرآنيا حين يستعمله القرآن الكريم، فيحمل دلالات ومعاني أوسع مما جرى على لسان العرب، أو يصاغ

بقالب جديد، أو يبتكر لفظا يجعل المخاطبين يصطلحون عليه بقوة الخطاب القرآني وسلطان نظمه وإعجازه، وانغراسه إيمانا وتسليما في المفهوم والأفهام.

والمصطلح الاستراتيجي في القرآن الكريم تتغير حمولته الاستراتيجية حسب الواقعة، وسياق النص في القرآن الكريم، فيصعب ضبط حدوده.

مثلا: مصطلح الإيمان، وهو مصطلح قرآني رئيسي، مصطلح له مشتقات لها درجات استراتيجية لا تقل عنه أهمية، هذا المصطلح إذا أخذنا منه مثلا اشتقاقا واحدا، وهي لفظة المؤمنون، في سورة الأنفال نجد مثلا هذه اللفظة وأنا أسوق هذا المثل ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا ربما أحتاج إلى شرح وإن كنت قلت أني لن أقف على شرح، (لن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت) (كثرت) هنا مطلقة: كثرت في عددها، كثرت في عدتها، كثرت في سلاحها، كثرت في بحوثها، كثرت في ترسانتها، النووية وما فوق النووية، لن يفيد ذلك بشيء إلا أن تكون المعية الإلهية (وأنّ الله مع المؤمنين) قاعدة مطلقة لا ينبغي أن تُنسى حتى لا نلتفت بما لا ينفع وندع ما ينفع، الناس شُغلوا بجهات يظنون أن لها قوة ونسوا منبع القوة، هذا القرآن لو حمله الناس حقا وضربوا به البحر لانفلق، هو أقوى من عصى موسى.

نفس اللفظة حينما نأخذها في مطلع سورة النور ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: 3) لها حمولة أنه لا تجتمع الفاحشة مع الإيمان مطلقا ولو في الوقت المؤقت الذي تباشر فيه الفاحشة، والأخرى تقول إن المعية يستحيل أن تكون بدون الإيمان مطلقا، هذه الحمولة الاستراتيجية هنا وهذه هنا مختلفة في النوع، فتلك تعالج شأنا اجتماعيا داخليا، وهذه تمكن من التحصين للدار من أي سوء قد يقع من خارج الديار أو ينبع من الدار.

الإشكال الثالث: المساس بسلطان المصطلح الاستراتيجي والإخلال بقيادته في التدافع المصطلحي.

فاحتاج العلماء والفقهاء والدعاة إلى مصطلحات فرعية لتوضيح المصطلح القرآني الأصلي؛ ونحن نحتاج لدراسة فيما أسميه التدافع اللغوي، لمعرفة أسباب ودوافع ابتكار وانتشار المصطلحات الفرعية للألفاظ القرآنية، لكن حسبنا الآن الإشارة إلى أن تاريخ اللغة، سواء الفقهي أو السياسي يشهد في أحيان كثيرة بطغيان المصطلح الفرعي على المصطلح القرآني الأصل، ولنا في تاريخنا القديم والحديث أمثلة، فمصطلح التوحيد مثلا، من المصطلحات الفرعية التي احتاجها نشطاء الأمة من علماء وفقهاء ودعاة وأدباء لعلل شتى، تحتاج إلى دراسة، تحتاج إلى عناية، تحتاج إلى تمحيص تحليل ودراسة تطوير، لشرح وتفعيل المصطلح القرآني الأصل، الذي هو الإيمان؛ إذ لا ذكر لمصطلح التوحيد في القرآن ولا في السنة بهذا اللفظ، وبناء على ما تقتضيه الصناعة المصطلحية في خدمتها لنصوص المصطلح تنزيلا له عبر التاريخ، فإني أود الإشارة إلى أن مصطلح التوحيد مصطلح فرعي، استخدم لتفعيل وتوطيد مكانة المصطلح القرآني الأصلي الذي هو الإيمان، ونفع أيما نفع، لكن حدث عبر التاريخ أن طغى المصطلح الفرعي على المصطلح القرآني الأصلي، وانتقل من مرتبة الجندي إلى الجلوس على كرسي سلطة مصطلح الأصلي، فوقع الإخلال بسلطان المصطلح القرآني من طرف خدامه وجنوده، الذين حجبوا جانبا من النشاط عن الساحة وروادها، ساحة العلم والمعرفة والثقافة وأمسوا بالحضور السيادي للمصطلح القرآني، هذا ما أردت الإلماح إليه دون تفصيل، فالكلام عن الإخلال بسلطان المصطلح القرآني في مجال تخصصه هو من فقه واقع لغة، لكن في المنظور الاستراتيجي هو تشخيص حال، وتحليل فوات مآل.

الإشكال الرابع: في طغيان الكلام عنه وضعف تنزيله:

وهنا أكتفي بمثال ليس من القرآن، ونحن نتتبع صناع الاستراتيجيا بعالمنا العربي والإسلامي، وعالمنا الثالث عموما، نسمع المذيع وهو يتكلم عن الرئيس، الذي لديه المرتبة الكبرى، والجالس على كرسي الصناعة الاستراتيجية رسميا، يتكلم عنه فيقول: فخامةُ الرئيس يمشي على رجليه الكريمتين، حينما يكون صاعدا لمنصة أو مستقبلا جمهورا من الساسة أو مرحبا بضيوف من خارج الدولة، لفظ فخامة ولفظ الكريمتين ألفاظ تبجيل، ماذا بقي؟ الرئيس يمشي على رجليه، هذا الخبر ونحن نتتبع رجلا أو امرأة يتربعون على كرسي الاستراتيجيا رسميا، هذا الخبر لا يمكن أن يرقى إلى النفع الاستراتيجي أو تكون له حمولة استراتيجية إلا في حالات ثلاث:

الأولى: أن الرئيس لعلة مّا لم يكن يمشي، فمنّ الله عليه فانتصب ومشى.

الثانية: أن فخامة الرئيس كان يستنكف أن يمشي فتواضع سيادته ومشى.

الثالثة: وهي أكثر حمولة، كان ممنوعا مقيدا من المشي فتحدى ومشى.

خارج ذلك طغيان كلام غير نافع؛ لأنه لم يلامس الواقع. فإذن، لماذا؟ لأن عندنا في العلوم الاجتماعية والإنسانية فائض من الكلام يطغى على الواقع، أي هناك تثوير في الألفاظ، وخاصة في التبجيل، يتجاوز الواقع، ولدينا عجز في الكلام، وخاصة في التشخيص والتحليل، وهذا إشكال، فالمذيع مثلا هذا الذي ذكرت عجز عن أن يغرف من الكلام المختصر النفيس، وحصر مهمته أو حُصرت له في النهل من قاموس التقديس، فاختل في أدوار المصطلح لغوية الميزان وحصل الطغيان، ولكم بهذا المثل أن تلمسوا تدفق الألفاظ في المجالس الدينية ومؤتمراتنا العلمية، لتلحظوا طغيان الكلام، كلام التبجيل، وعجز اللسان، لسان البحث العلمي عن الدراسة والتشخيص والتحليل.

الإشكال الخامس: أن المصطلح الاستراتيجي استهدف مبكرا من العدو، وهو اليوم أشد استهدافا، بل عجز أهل الدار عن الدفاع عنه بطغيان التفاسير والتأويلات والشروح للقادم من خارج الدار، أنا كنت احترت في دراسة مصطلحين اثنين، مصطلح الجهاد، ومصطلح الإرهاب، وكلاهما وارد في القرآن الكريم، مصطلح الجهاد، للدكتور عبد الرحمن بوكيلي بحث قيم، أنا اطلعت عليه مؤخرا في زيارتي هذه بلدي، ومصطلح الإرهاب، الذي لم نعد نملك شيئا في شرحه ولا في إقناع الناس بدلالاته، فلا يقبل منا فيه حكم ولا عدل، والأمر خطير يدعو إلى الاستعجال بتكوين فريق من الباحثين لتحديد المعجم المفهومي للمصطلح الاستراتيجي في القرآن الكريم، لتنتفع به أجيال قادمة، لعلها تقوم بشيء عجزنا نحن عنه، عجل الله بذلك ومكَّن منه بفضله.

والسلام عيكم ورحمة الله تعالى وبركاته.